**عبادة التأمل أو التفكر  
  
ولقد كانت آخرُ المراحل للنبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته هي عبارة عن تأمُّلٍ وتفكُّر ، فقد جاء عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كما عند البخاري ومسلم ، الحديث الذي تروي فيه بدء الوحي فتقول : (( .. ثُمَّ حُبّبَ إليه الخلاء ، فكان يذهب إلى غار حراء يتحَنَّثُ فيه ـ أي يتعبّد ـ الليالي ذوات العدد .. )) فأي عبادة تلك .. ولم تكن ثَـمَّةَ صلاة ولا صيام ، فأي عبادة عرفها النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يكون نبياً ؟  
إنّها عبادة التأمل والتفكّر في خلق الله تبارك وتعالى . كان يمكث أياماً طويلة يتفكر ، حتى ازداد قُربه من ربه قبل بعثته ؛ فكانت هذه العبادة بمثابة التهيئة من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن يترك هذه العبادة ـ أيضاً ـ بعد بعثته ، فقد جاء عن عائشة رضي الله عنها أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لها ذات ليلة : يا عائشة .. ذريني أتعبد الليلة لربي ، فقالت : والله إني أحب قربك ، وأحب ما يسرك .. قالت : فقام فتطهر ، ثم قام يصلي ، قالت : فلم يزل يبكي حتى بل حجره ، قالت : وكان جالسا فلم يزل يبكي حتى بل لحيته . قالت : ثم بكى حتى بل الأرض . فجاء بلال يؤذنه بالصلاة ، فلما رآه يبكي ، قال : يا رسول الله ! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ لقد أُنزلت علي الليلة آية ؛ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها : (( إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) ..)) الآيات من سورة آل عمران .. حسنه : الألباني صحيح الترغيب   
ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم هو فقط مَن كان يؤدي هذه العبادة ، بل باقي الأنبياء مِن قبله ، فهذا ابراهيم الخليل عليه السلام ، يقول تعالى عنه : (( وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75[/b]) )) الأنعام .  
  
هل مارست هذه العبادة في حياتك ؟ وهل مارستها كثيراً ؟  
  
إخوة الدين والعقيدة .. بهذه العبادة يُعرَفُ اللهُ فيُحَب ، وبها يُعرف مراد الله من الخلق ، وبهذه العبادة يرِقُّ القلب ويتصل بالخالق ـ عز وجل ـ وبها تُتركُ المعاصي ؛ لأنَّ هذه العبادة هي الباب الموصل إلى الله تبارك وتعالى   
  
قال ابن القيم رحمه الله : معرفة الله سبحانه وتعالى نوعان   
  
الأول : معرفة إقرارٍ بوجوده ؛ وهذه يشترك فيها البر والفاجر ، والمطيعُ والعاصي ، فكل الناس يقولون : إن الله موجود ..  
أخي المبارك .. كيف نصل إلى معرفة الله جلَّ وتقدَّس ؟ إننا بالإمكان أن نصلَ إلى معرفة الله بطريقين :  
الأول : آيات الله المقروءة ، ألا وهو كلام ربنا عن نفسه في كتابه القرآن .  
والثاني : آيات الله المنظورة ، وهي صفحة الكون وما فيها من حياة ؛ لكي لا يكون لمن لا يُجيدُ القراءةَ والكتابة حجة على الله تعالى ، فيقول : لم أعرفك لأنني لا أجيد القراءة والكتابة .. لم أكن أفهم ..!!  
سبحان الله .. ألم تنظر حولك.. أفلم ينظروا .. أفلم يسيروا في الأرض فينظروا .. أفلم يسمعوا .. أفلم يروا ؟  
أنظر حولك ، وانظر إلى بديع صنع الخالق جَـلَّ وعلا وتقدّس .. تأمّل صَنعة الباري وقل سبحان باريها ..  
وفي ظل هذه الآيات المنظورة يَنقلُ هذا الأعرابي ما صوَّرتهُ عدسات عينه ـ عندما سُئل ـ عن وجود الله فقال بفطرته السليمة : البَعَرَةُ تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ألا تدل على العزيز الخبير . فلله ما أحسنه من استدلال وما أعجبه من منطق وبيان .  
  
ولو مررنا بكتاب الله لوجدنا أنّه دائماً يدعونا إلى إعمال العقل ، كما في قوله تعالى : (( أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) ...)) (سورةالغاشية ). فيأمر الله عِبَاده بِالنَّظَرِ فِي مَخْلُوقَاته الدَّالَّة عَلَى قُدْرَته وَعَظَمَته.  
ويقول سبحانه : (( [b]إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6) )) (سورةالجاثية) .   
  
سُئِلت أم الدرداء : ما كان أفضل عمل أبي الدرداء ؟ قالت : ( التفكرُ والاعتبار ) ، فانظر يا رعاك الله كيف كان التفكر في خلق الله تعالى مِن أفضل العبادات عند أبي الدرداء ؛ ثمَّ انظر كم هي منسيةٌ هذه العبادة عند غيره ..  
قال الإمام الحسن البصري - وقيل أبي الدرداء - : ( تَفَكُرُ ساعة خير من قيام ليلة ) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن المبارك في الزهد .  
وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ركعتان مقتصدتان في تفكيرٍ خير من قيام ليلة والقلب ساه . فهلا أعملنا هذا الفكر أيها الأحبة وأطلقنا له العنان يهيم في ملكوت الله لعلّه يرجع بثمار المعرفة فيتجدد بها الإيمان ويُنال رضى الديّان ، لتجلس في غرفتك بينك وبين نفسك وشاهد خلق الله في نفسك (( وفي أنفسكم أفلا تبصرون )) ،   
تأمل في الوجود بعين فكر \*\*\* ترى الدنيا الدنيئة كالخيـالِ   
  
ومن فيها جميعًا سوف يفنى \*\*\* ويبقى وجه ربك ذو الجلالِ  
  
منقول من خطبة : جمال بن عبدالله العُمري الزهراني**